تداخل المرجعيات المعرفية وأثرها في تشكيل سيميائية أمبرتو إيكو.

الدكتورة: وافية بن مسعود
جامعة قسنطينة 1

أدرك اللساني "دوسوسير" (DeSaussure) وهو يتقصى مركبات النظام اللساني، أن العلامة اللسانية التي توقف عندها بالدراسة والتدقيق لا تفرز إلا عينة واحدة من عينات التواصل الإنساني، وبذلك نوه بإمكانية نشأة علم آخر يدرس حياة العلامات في المؤسسة الاجتماعية ومنحه مصطلح "سيميولوجيا" (Sémiologie).

هذه الإشارة العلمية في "محاضرات اللغة" ساقت بعدها جهودا كثيرة اتسمت بتعدد التوجهات والتصورات ، ولعلنا في هذه المحاضرة نقدم على قراءة مسار بحث علمي للسيميائي والروائي الإيطالي "أمبرتو إيكو" (UmbertoEco) الذي بدأ بنشره لكتاب "الأثر المفتوح" (L'Œuvreouverte) سنة 1962، ونقل إلى اللغة الفرنسية سنة 1965، وتلت هذا الكتاب سلسلة من الكتب والمقالات، اتسعت للبحث في مجالات كثيرة، حاول إيكو الجمع بينها في السيميائية والتأويل ونظرية القراءة وفق تصوره وقناعاته العلمية الخاصة.

إننا في هذه المحاضرة لا نَدَّعي أننا سنتمكن من وضع نموذج شامل للسيميائية المقدمة من طرف "أمبرتوإيكو"،بآلياتهاومرجعياتها المعرفية التي يصعب الإلمام بها في هذا المقام ، وإنما سنفعل بمساره العلمي ما فعله بتاريخ الفكر السيميائي الغربي؛ حين قرر ألا يتبع السلسلة التأريخية بقدر ما قرر البحث في التفاصيل التي تتقاطع مع فرضياته التي قدمها في كتابه "السيميائية وفلسفة اللغة"

يمكن أن ننطلق من فرضية تتصل بعدد من الإشكالات والمسائل المطروحة في مسار السيميائية مسار البحث عند إيكو: إن السيميائيات في مرحلتها الحالية تقدم على انفتاح حقلها ليواجه مجالات تبدو للوهلة الأولى أنها تناقض مبادئها الأولى،التي بدأت في الأصل بنيوية صارمة.

إننا نبدأ من قناعة مفادها أن هذا الانفتاح الإجرائي لا يمكن أن يتحقق إلا بالاعتماد على مرجعيات معرفية تسمح له بذلك، لهذا سنبحث في فكر "إيكو" السيميائي عن هذه المرجعيات، كضرورة لفهم التحولات التي تمر بها السيميائيات على مستوى الحقل والموضوعات التي تهتم بها من جهة وعلى مستوى الإجراءات التي تنتهجها من جهة ثانية.

يمكن بناءً على هذا أن نقدم التساؤلات التي فرضت علينا نفسها أثناء تواصلنا مع هذا البحث وهي: هل السيميائيات المقدمة من طرف "أمبرتو إيكو" ستجيبنا عن الكيفية التي انفتحت بها هذه النظرية على الأنساق الثقافية بعدما حصرت منذ البداية في النسق اللفظي؟ ما هي المرجعيات التي سمحت بهذا المسعى التطوري في الفكر السيميائي؟

تتمفصل هذه المحاضرة إلى عناصر يمتد كل منها إلى الآخر بروابط لا يمكن فصلها؛ إذ لا يمكننا فصل كتب هذا الباحث في التأويل أو الفلسفة أو القارئ أو آليات الكتابة السردية عن المشروع الأساسي الذي عمل على تأسيسه وهو السيميائيات.لذلك سنبدأ بمناقشة أبرز القضايا التي بدأ بها إيكو مساره العلمي، تلك التي ظهرت في كتابه "الأثر المفتوح"، ثم ننتقل إلى كيفية بنائها لتصوره السيميائي من خلال قراءته للتصورات السابقة والمعاصرة له. هذا الأمر الذي سيسمح لنا بعد هذه الخطوة أن نتطرق إلى المرجعيات المعرفية التي ظهرت في كتبه وهو يعمل على بناء مشروعه السيميائي.

تتفرع هذه المرجعيات إلى اللسانيات، والفلسفات، والسميائيات ونظريات القراءة، ولكن قبل أن نبدأ علينا التأكيد أن هذه المؤثرات لا تسير على وتيرة واحدة في ظهورها داخل بحوثه، وإنما قد يشار إليها بشكل كثيف كما يظهر ذلك بالنسبة إلى الفكر البيرسي، أو بشكل متقطع مثل الظاهراتية الألمانية.

1- الأثر المفتوح وتجربة إيكو مع النصوص

جسد هذا الكتاب بداية من الباب الواسع لأمبرتو إيكو، كي يلج ميدان السيميائية وتحليلالأنساق؛ فقد أخذ مفهوم "الانفتاح" قراءة جديدة مع هذا الباحث، فاختار نصوص "جيمس جويس" (JamesJoyce) ونماذج كثيرة غير أدبية كالموسيقى والفنون التشكيلية

الباحثة عن كسر القيود والبحث عن إمكانات جديدة للكتابة وإدارة العالم أو تشكيل عالم بديل عنه.

هذا الانفتاح الذي يورط القارئ والمؤول في إعادة بناء وتلقي الأثر الفني على عمومه، ويمنحه إمكانية التفاعل مع الاستراتيجيات التي تنظم العلاقات بين عناصر النص؛ إذ يحاول منذ البداية أن يضبط مفهوم الانفتاح بأسلبة المفاهيم القديمة المتداولة للمصطلح ثم بناء مفهومه الخاص؛ حيث يرى "أننا نقوم بتجريد المفاهيم الأخرى لكلمة ما لكي نجعلها تعبر عن جدلية جديدة بين الأثر ومؤوله"1

إن هذا يجعل من المهم الإصرار على العلاقة الوطيدة التي تربط بين مؤول النص والانفتاح، فـ "كل أثر فني حتى، وإن كان مكتملا ومغلقا من خلال اكتمال بنيته المضبوطة بدقة، هو أثر "مفتوح" على الأقل من خلال كونه يؤول بطرق مختلفة دون أن تتأثر خصوصيته التي لا يمكن أن تختزل "2. يظهر الأمر واضحا من خلال هذه الإشارة أن إيكو يبدأرحلته مع النص بمحاولته الجمع بين بنيته المغلقة والمحدودة من الناحية الشكلية وبين القارئ المؤول الذي ينفتح النص أمامه دلاليا دون أن يشكل ذلك اختزالا لبنيته .

يأخذ القارئ بهذا التصور موقعا يسمح له ببناء علاقات النص الداخلية بأشكال متعددة، ليخلص في الأخير إلى قراءات متعددة ولانهائية، وهو ما يشير إلى الفاعلية التي يمنحها "إيكو" إلى مؤول النص.كما يشير كذلك أنه لا يتخلص رغم ذلك من الدور الذي يقوم به لتركيب النص وعلاقاته بإدارة لعبة الانفتاح.

يظهر لنا هذا الباحث طيلة مدخل الكتاب أن مفهوم الانفتاح قد مرّ بمراحل كثيرة في الفكر الغربي، فله مظاهره في الفلسفة كأفلاطون في كتابه "الصوفي"، ثم تبني الفكرة في الفنون التشكيلية والموسيقى والشعر في العصر الوسيط، والفنون في العصر الباروكي إلى الرمزية، ثم الكتاب عند "مالارمي"(Mallarmé)ثم"جيمس جويس" .

لكنه لم يتوقف عند هذا الحد، وإنما أعاد ربط مفهوم "الانفتاح" بالعلم وتطور التصورات التي يقدمها، لأن الفنون وأشكال الإبداع لا تتسم بالتواصل مع الفلسفة فقط، وإنما العلوم

كذلك التي استخدموا مفاهيمها؛ حيث يورد أن بعض فناني الرسم التشكيلي استخدموا مفهوم "حقل الإمكانيات"، فمفهوم الحقل يعود إلى الفيزياء، ويتصل بنظام التأثيرات المتبادلة وديناميةالبنيات، ومفهوم الإمكانية يتصل بالفلسفة الأوروبية المعاصرة التي بدأت تتخلى عن تصورها الثابت والقياسي وتستحدث قيما لينة ومرنة3. إن انتقال العلم من الثابت إلى النسبي إلى الذري إلى الجزيئي جعل التفكير الفلسفي واللساني وبعدهما السيميائي يتغير كذلك، هكذا يجعل "إيكو" من هذا المفهوم تصورا جذريا، حاضرا في الفلسفة والعلم قبل أن ينتقل تأثيره إلى النصوص الإبداعية.

كما أن الانفتاح في مشروع أمبرتو إيكو يعد جزءا من تصور أكبر يتصل بالأثر المتحول، فيقول: إن "شعرية الأثر المتحول (وجزئيا شعرية الأثر "المفتوح") تؤسس نوعا من العلاقات بين الفنان وجمهوره، واشتغالا جديدا للإدراك الحسي الجمالي، وتؤمن للمنتج الفني مكانة جديدة في المجتمع، وتقيم في الأخير علاقة غير مسبوقة بين تأمل واستعمال الأثر الفني"4 .إن الأثر المتحول الذي يطمح إليه هو الأثر الذي تكون عناصر بنيته حركية بحيث تسمح للمتلقي بشيء من الحرية أثناء قراءتها وإعادة إنتاجها ، لكن الطريق الذي يوصل إلى ذلك هو الانفتاح.

يمكننا أن نضيف أخيرا إقراره ضمنيا أو صراحة، أن بحثه هذا يتصل بالضرورة ببحوث التداولية ونظرية القراءة والتلقي، وإن كنا لا نجد داخل المتون التي درسناها له أي إشارة إلى الدراسات الألمانية المتصلة بهذا المجال سواء أكانت لـ "إيزر" أم "ياوس"، كما هو الحال عندما يدرج الباحث الفراغات داخل النص في أشكال تحفيز المؤول وانفتاح التأويل، فيقول:"فالواجب أن نتجنب فرض التأويل الواحد على القارئ، فالفضاء الأبيض واللعب الطباعي والتنظيم الخاص للنص الشعري كلها تشترك في خلق هالة من الغموض حول الكلمة وفي ملئها بالإيحاءات المختلفة. بهذا الشكل يكون الأثر مفتوحا بدون قصد على التفاعل الحر للقارئ "5 هذا التفاعل الحر الذي يستعمل بنيتين تحيل الأولى على النص والثانية على المؤول.

ولعل هذه النتيجة تأخذ محلها بالموازاة مع فاعلية الفراغات في النص التي أشار إليها

"إيزر" (Iser) في كتابه "فعل القراءة" (L'actede la lecture)؛ حيث يرى أن آليات التي ينتجها القارئ للتفاعل مع استراتيجيات النص تُحفز من خلال حضور البياضات في النص، وهي تشير إلى انفصال بين مقاطع النص وعلى القارئ أن يقوم بوصلها عن طريق بناء احتمالات تأويلية متعددة6، مع أن إيكو لم يستند إلى أعمال نظرية القراءة والتلقي في أبحاثه (إيزر /ياوس) فقد أشار بعدها بسنوات في مقدمة كتاب "القارئ في الحكاية"(Lector in fabula)قائلا: "أدركت متأخرا أنني لطالما اشتغلت في التداولية بلا معرفة، أقله في ما يدعونه علم تداول النص أو جمالية التلقي "7

لن يتوقف مفهوم الانفتاح عند قضية تفاعل القارئ مع النصوص ، وإنما يستمر ليحاول هذا الباحث أن يتجاوز به حدود الأعمال الإبداعية ، فسنجد أن فكرة الانفتاح ترافق كل تصوراته عن السيميائية وحدودها في إنتاجه العلمي بعد هذا الكتاب.

2- خصوصية سيميائية أمبرتو إيكو :

إن ما يميز أطروحة إيكو السيميائية هي قدرته على قراءة الاتجاهات، وحيثيات الفكر الإنساني، ومحاولة رصد إمكانية جمعها ودمجها في توجهه السيميائي، لذلك كان تصوره للسيميائية وحدودها مختلفا، وذلك ابتداءً من كتابه "البنية الغائبة" (La structure absente) الذي نشر 1968، وترجم إلى الفرنسية سنة 1972

يتشكل مشروع هذا الكتاب من خطين أساسيين للنظرية السيميائية، فـ"من جهة النظر إلى السيميائيات بوصفها أنظمة "مغلقة" مبنينة بشكل صارم، منظورا إليها بشكل تزامني. ومن جهة أخرى قضية النموذج التزامني للسيرورة "مفتوحة" حيث الرسالة الفعلية تتحرك حسب الأسننوالأسنن تتحرك حسب الإيديولوجيات والظروف؛ حيث يعيد كل نسق من العلاماتتشكيل نفسه باستمرار على أساس تجربة تفكيك السنن السيرورة المؤسسة بوصفها سيميوز تطورية (سيرورة دلالية متطورة)"8

يظهر هذا التصور اجتماع تيارين معا، أحدهما بنيوي يحدد حقل اهتمامه بين البنية المغلقة للعلامة في تكوينها الداخلي أثناء حالة من الثبات الزمني الآني، أما التيار الثاني فيفترض أن الخصوصية الفعلية للسيميائيات تتصل بإدماج العلامة داخل سياقاتها، وكيفية تجليها وتأثيرها

في سياقات أخرى. إنها عملية نقل من نسق إلى آخر في استمرارية تطورية ، توسم بأنها أكثر انفتاحا وحضورا في السيرورة الزمنية والثقافية.

لا يتعلق هذا التصور بكتاب "البنية الغائبة" فحسب، وإنما يتكرر في كتب أخرى ، فها هو إيكو يقدم لنا الهدف من كتاب"العلامة"؛ حيث يصر على تشكيل نظرية شاملة لـ "السيميوز" (Sémiosis) انطلاقا من مفهوم العلامة ذاته، فيقول: "سنحاول تبيين أننا قادرون على إقامة نظرية واسعة للسيميوز(أو التوليد السيميائي)استنادا إلى تعريف العلامة ذاتها. إن مهمتنا ، بالإضافة إلى تعريف العلامة، هي الإبانة عن كيفيةاستعمال مجتمع ما لهذه العلامات من أجل الإخبار أو الكذب أو السيطرة أو التحرر. "9 وهذا ما يؤكد أن العلامة تملك بالفعل طبيعة تواصلية، ولكنها تندرج أيضا داخل سيرورة دلالية تحكمها الثقافة.

إن إيكو يلغي إمكانية التعارض بين التوجه البنيوي الذي قدمه "سوسير" في اللسانيات والتوجه التداولي الذي قدم "بيرس" (C.S.Peirce)فيجمع بذلك بين سيميائيات العلامة وسيميائيات الخطاب، والنتيجة هي وجوب العمل على السيميائيتين معا؛ إذ " لا وجود لسيميائيات للعلامة دون سيميائيات للخطاب. إن نظرية للعلامة كوحدة معزولة ستكون عاجزة عن شرح الاستعمال الجمالي للعلامات، ولهذا فإن تأسيس سيميائيات للفن هو تأسيس بالضرورة لسيميائياتالخطاب والنص "10

ومع أنه يقدم على هذا الدمج فهو يعرف ما يمكن أن يواجهه الباحث من إشكالات إذا سار خلف الاتجاهين، ولعل أهم هذه الإشكالات الابستيمولوجية ؛ هي مسألة تحديد الحقل الذي تعمل عليه السيميائية، وحدودها كذلك، لهذا فهو يقترح عتبتين لتقدير هذه الحدود، أحداهما دنيا، والأخرى عليا، ويعتبر أن مسألة توضيح حدود السيميائية هي ضرورة منهجية لهذا العلم .

يفترض"إيكو" أن أبرز ما يميز السيميائيات هو حقلها فرغم شموليته يبقى غير محدد بطريقة دقيقة لذلك يقترح علينا عتبتين ، تمثل الأولى العتبة السفلى وهي الحد الأدنى لهذه النظرية.أما الثانية فهي العتبة العليا وهي أقصى ما يمكن أن تتفاعل السيميائية في حدوده.

فنجد الباحث يرسم الفرق بين العتبتين على الشكل التالي: "إذا كانت العتبة الدنيا

للسيميائية يمكن أن تتخذ موقعها على الحدود بين الإشارة والمعنى ، فإن العتبة العليا ، يجب أن تكون مثبتة على الحدود بين الظواهر الثقافية التي تعد –بدون شك- علامات (مثل الكلمات) وهذه الظواهر الثقافية يبدو أن لها وظائف أخرى غير تلك المتعلقة بالتواصل (سيارة مثلا تفيد في النقل وليس التواصل) وإذا لم نحل الإشكال الخاص بالعتبة العليا حالا لا يمكننا أن نقبل التعريف الذي يجعل السيميائية مجالا علميا يدرس كل الظواهر الثقافية بصفتها سيرورات للتواصل"11

يقدم الباحث العتبة الأولى دون الإحالة على إشكالات إبستيمولوجية خاصة بها،فهي متصلة بتفحص العلامة في تكوينها البنيوي وعزلها عن أي سياق خارجي يمكن أن تقع فيها أما العتبة الثانية ، فهي تدفع بالعلامات إلى خارج حدودها كي تختبر الآليات التي يجري إدماجها بها والاختلافات التي قد تسوب طبيعتها كلما أدخلت في سيرورة دلالية جديدة، غير إنها قد تواجه قلقا منهجيا إذا لم نتمكن من اعتبار أنساق التعبير أنساقا ثقافية بالضرورة، لأن هذا لن يسمح بانفتاح الحقل السيميائي واستيعاب الاختلاف التكويني الذي تظهر به ، كما هو الحال بالنسبة للأنساق البصرية؛ إذ تمكن العتبة العليا الباحث في السيميائيات من الانفتاح على الظواهر الثقافية غير اللفظية، رغم ما تحيل عليها من إشكالات في نسق بنائها ، وفي الأسنن التي تحكمها، فهي بلا شك عبارة عن علامات ، وإن اختلفت طبيعة تكوينها والروابط التي تؤول بها . إن العتبة الدنيا توقف السيمياء عند التصور التكويني ، في حين تنقلها العتبة العليا إلى البعد التداولي الذي بدأه بيرس، ويصر عليه إيكو كذلك.

إن هذا هو الأمر الذي قاده إلى النظر في الأطروحة الخاصة ببيرس والتي كان أثرها أكثر وضوحا على مشروعه، بالإضافة إلى الأطروحة المقدمة من طرف "غريماس" (Greimas)؛ إذيرى أن أطروحته السيميائية المنفتحة والمتسعة قابلة لجمع الروابط الممكن قيامها بين هذين التصورين السيميائيينلتحليل النصوص. إن هذا الربط سيسهل علينا فيما بعدالبحث في السيميائيات بتوسع أكثر فيما يتعلقبسيميائية الفيلم مثلا كالربط بين السيميائيات البنوية والحركية التأويل السيميوزيسالبيرسية ، بالإضافة إلى السرديات البنوية وآلياتها .

ولعلنا في هذا المقام نقتبس من كلامه ما يؤكد زعمنا؛ حيث يقول:" أنني شئت التشديد

على مظهر آخر لهذا الكتاب (مظهر يسوّغه التأثير العميق الذي خلّفتهُ سيميائية بيرس في أعمالي إبان السنوات العشر الأخيرة): وهو أن يُرى إلى النص الحكائي، مأخوذا "من أسفل". وفي مقابلة ذلك، ثمة سيميائيات تعالج الحكائية (ولاسيما سيمياء غريماس على سبيل المثال، وهي الأكثر إقناعا بلا منازع) بأن تتناول النص من أعلى. ولئن كانت هذه الصورة لا تفي للإبانة، فإننا نقول إنها (أي السيميائيات) تتناول النص من أعمق جذوره التكوينية(في حين أسعى إلى مبادأتِه من على سطح فعل القراءة)"12

يوجه أمبرتو إيكو تصوره عن السيميائية نحو الجمع بين الاتجاهين ؛ أي الجمع بين دراسة البنية التكوينية للنص وأفعال القراءة التي تصاحبها وتؤولها موضحا" إنما يتضح لي غاية في الضرورة أن يتلاقى المساران (يعني ذلك أنه، في نهاية المطاف، ينبغي لهذين المسارين أن يُلما بالنص عينه، وبنشاط الإنتاج والتأويل النصيين نفسيهما)"13

إن هذا الجمع بين التوجهين يتصل في الأصل بفرضيتين أقامهما الباحث في بداية كتاب "البنية الغائبة؛ حيث يعتقد أن السيميائيات لا تتصل بالموضوعات المعتادة الخاصة بالنموذج اللساني، وإنما عليها أن تتصل بالعلامات التي ينتجها الإنسان عبر تشكيل الأسنن وأنماط من الأنساق العرفية التي تتحكم الثقافة في إنتاجها، وانطلاقا من هذا يقدم فرضيتين للبحوث السيميائية: " الأولى جذرية والثانية تبدو اكثر اعتدالا هما: أ) يجب أن تدرس الثقافة بوصفها ظاهرة تواصلية، ب) كل مظاهر ثقافة معينة يمكن أن تدرس بوصفها مضمونا للتواصل"14

ثم يقوم بتقديم الفرضيتين فيرى أنالأولى"تجعل من السيميائية النظرية العامة للثقافة، وبعبارة أخرى تصبح بديلا للأنثروبولوجيا ولكن اختزال كل ثقافة إلى التواصل لا يعني اختزال كل الحياة في الحياة الفكرية، أو بالأحرى إلى افعال ذهنية خالصة [...] وهذا لا يعني الأشياء، السلوكات، روابط الإنتاج، وقيم تشتغل اجتماعيا لأنها تستجيب لبعض قواعد السيميائيات بصفتها كذلك"15

يقدم هذا المشروع الفرضية الأولى، وهي تنظر إلى الثقافة بوصفها موضوعا للسيميائية ، فتصبح هذه الأخيرة بديلا للأنثروبولوجيا التي تبحث عن الحياة الثقافية للعلامات داخل المجتمع، ومع ذلك يقدم إشكالا مهما لها، ويتصل بأن هذه الفرضية يمكنها أن تصح على النتاج

الاجتماعي المعنوي للإنسان وليس المادي بالضرورة .

أما الفرضية الثانية فهي تقلب الأمور ، لأنها تجعل كل الظواهر الثقافية قابلة لأن فيرى أنها " تصبح موضوعات تواصل. إذا عمقنا هذه الصياغة ندرك أنها تعني ببساطة أن كل ظاهرة ثقافية هي وحدة دلالية، أو بعبارة اخرى علم دلالة مطور لا يمكنه أن يكون إلا دراسة لكل ظواهر الثقافة منظورا إليها بوصفها مدلولات يتواصل بها الإنسان"16

وهو هنا يعيد إلى كل الظواهر الثقافية طبيعتها التواصلية، وبذلك المنتجة للسيرورة الدلالية، فعدّ هذه الظواهر موضوعات للتواصل يعني نقلها من كونها دالا في الفرضية الأولى إلى جعلها مدلولا؛ أي عبارة عن مدلولات لأنساق مختلفة ينتجها الإنسان لكي يتواصل من خلالها انطلاقا من عمليات تسنين متعددة ، لكنه ما يلبث أن يجمع بين الفرضيتين،فيقول إن "الفرضية الثانية التي بموجبها تصبح الظواهر الثقافية مضامين لتواصل ممكن، تحيل على الفرضية الأولى التي تؤكد أن الظواهر الثقافية يجب ان تكون منظورا إليها كظواهر للتواصل 17"

ما يمكننا استنتاجه من هذه العملية التوافقية هو أن مشروعا للسيميائية عليه أن يصر على عدِّ الظواهر الثقافية دوالا ومدلولات للتواصل في الآن نفسه؛ حيث إن الغرض الفعلي من دراسة العلامات يتجزأ إلى محورين الاول يحيل إلى مضمون العلامة ، ويحيل الثاني إلى الكيفية التي تنتقل بها بين الأنساق المتعددة.

إن مناقشة حدود السيميائية قادت "إيكو"إلى تقديم مفهومه لهذه النظرية قائلا إنها "تدرس كل السيروراتالثقافية بوصفها سيرورات للتواصل. إنها تطمح إلى إبراز الكيفية التي يظهر بها داخل السيرورات الثقافية أنظمة- سيرورات؛ تقود إلى تأكيد ثنائية سنن/ إرسالية"18

يبرز هذا المشروع السيميائي الطموح لـ"أمبرتو إيكو" أن غاية السيميائية ليست التركيز على طبيعة الأنظمة وتكوينها فحسب، وإنما الكيفية التي تلج بها هذه الأنساق سيرواراتتدليلية لا نهائية، وهذا يعيدنا من جديد إلى تصوره المرتبط بالخلفية البنيوية- وهذا صحيح- إلا أنه لا يتوقف عندها ، لأنه ينفتح في الأخير على اطروحة اوسع هي سيميائية "بيرس" التداولية.

3- الخلفيات المؤثرة في توجه إيكو السيميائي

يبدأ أمبرتو إيكو في كتاب "البنية الغائبة" بتحديد المؤثرات الكبرى في توجهه السيميائي فيقول:"أنجزت أجزاء الكتاب... الأول بين الخمسينات وبداية الستينات، ويممتُ، من ثم، شطر أبحاث الشكلانيين الروس، واللسانية، وعلم الإناسةالبنياني،وشطر اقتراحات جاكوبسون السيميائية وأعمال بارث. ولما صدر كتاب "العمل المفتوح" في ترجمته الفرنسية جاء يحمل في ثناياه طابع هذه المؤثرات. وفيما بعد، جاءت نظرية غريماس في علم الدلالة، لتثري أفكاري حول بنية النتاج؛ في حين أعانني اطلاعي على بيرس، على إيضاح حيوية التأويل "19

إن هذه الحوصلة تقدم لنا بوضوح المؤثرات الكبرى التي طبعت الجانب المعرفي الذي ارتكز عليه لتأسيس نظريته في ما سمي بـ "سيمياء الثقافة" ، كما يمكننا أن نضيف إليه مرجعيات أخرى أحال عليها الباحث نفسه في مواضع اخرى كما هو الحال بالنسبة إلى تأثره الواضح بحيوية التأويل ودراسة الأعراف والأنساق السيميائية، والبعد التداولي للنص ونظرية القراءة والتلقي.

تتكرر هذه الإحالة على المرجعيات و أثرها في المشروع السيميائي لهذا الباحثفي كتابه "السيميائية وفلسفة اللغة" (Sémiotiqueetphilosophiedu langage) الذي صدر بالإيطالية سنة 1984 وترجم إلى الفرنسية سنة 1988؛ حيث نجد أنه لا يفصل بين رحلة البحث عن العلامة والنسق السيميائي وبين المرجعيات التي يمكن أن يحتك بها ، فالبحث عن مفاهيم من قبيل العلامة، السنن، والنسق ، وغيرها من هذه المفاهيم، يحتم بالضرورة حسب وجهة نظر أمبرتو إيكو الالتقاء بمتخصصين في الطب، الرياضيات، العلوم الطبيعية ،والبلاغة، وخبراء التنجيم والترميز ومنظري الفنون البصرية ، كما يركز بالتحديد على دور فلاسفة اللغة خصوصا والفلاسفة على وجه العموم 20

هكذا تتشكل لنا المرجعيات التي يمكن أن يواجهها باحث في السيمياء يريد التدقيق في مفاهيمها وخلفياتها، هذه الرؤية الشمولية المقترحة تجعلنا نواجه مراحل الفكر الغربي كاملة كي نكتشف ماذا كان يبحث عنه "إيكو". إنه لا يفصل السيمياء عن سياقها الفكري ، وإنما يضع الباحث فيها أمام قراءة لا تخص التاريخ ، وإنما حضور العلامة في نسقها الاجتماعي

والتاريخي والفلسفي والعلمي باحثا عما أسماه "نسق الانساق".
لا يفصل أمبرتو إيكو طوال مدة بحثه في السيمياء وعلى مدار دراسات عديدة بين السيميائيات والفلسفة، وإن كانت نظرته إلى الفلسفة تتسم ببعض الخصوصية؛ حيث يعتبر أن "كل فيلسوف كبير (من الماضي) أسس بطريقة ما سيميائية معينة "21، في إشارة إلى تعمق الفكر السيميائي داخل الفكر الفلسفي الغربي نفسه منذ عهد ، خصوصا إذا عرفنا أنه يحيل في ذلك إلى "أرسطو" ، و"أفلاطون".
نكتشف في كتاب "السيميائية وفلسفة اللغة "رغبة إيكو في تأسيس فلسفة للسميائية أو بعبارة أخرى محاولة تأسيس الإرث الابستيمولوجي لهذه النظرية، كما يمكننا أن نشير أيضا أنه عمل على تمييز طبيعة اتصال السيميائية بالفلسفة حسب أنواعها التي يقترحها، وهي السيميائية العامة، والسيميائية الخاصة.
فالسيميائية الخاصة -حسب رأيه-تؤسس لنفسها خلفية معرفية تستند إليها لحل الإشكالات التي قد تصادفها على المستوى الإجرائي أو الموضوعاتي، ويعد إيكو أن هذه المسألة مشتركة لدى كل العلوم، إذلا يمكن لأي بحث علمي أن يذهب بعيدا في اكتشافاته دونأن يسائل مرجعياته الفلسفية . وسواء أكانت مطروحة من طرف الفلاسفة أم من طرف الباحثين أنفسهم22
أما السيمائية العامة يرى أنها" ذات طبيعة فلسفية ، لأنها لا تدرس نسقا سيميائيا محددا ، ولكنها تقدم مقولات عامة يمكن على ضوئها أن نقارن بين مختلف الأنظمة. لا يعد الخطاب الفلسفي بالنسبة للسيميائية العامة محبذا ولا حاجة ملحة، وإنما يعد تأسيسيا ببساطة"23
إن الفرق بين السيميائيتين يتصل بكون التساؤلات الفلسفية التي تطرحها السيميائية الخاصة جزئية تجيب عن انشغالات قد تطرأ على مستوى المفاهيم أو الإجراءات التي تعتمد عليها لتحليل موضوعاتها، في حين أن السيميائية العامة لا تختص بدراسة موضوعات بعينها ، وإنما تطرح قضايا إشكالية تخص المقولات العلامة لهذه النظرية، ولذلك يجب أن تكون ذات طبيعة فلسفية في الأصل، تسائل الخلفيات العامة ترتبط بمشروعها بالضرورة.
1.3 الفلسفة البنوية

لم يبدأ إيكو مسار بحثه بينويا كما فعل الكثيرون غيره أمثال "تودوروف"(Todorov)، و"بارث" (Barthes)، غير إنه لا يغفل أبدا الأهمية التي يملكها التيار البنوي في دراسة العلامة على وجه التخصيص ودراسة الظواهر الفلسفية واللغوية على وجه العموم، ولعلنا قد أشرنا إلى شيء من هذه الأهمية في العنصر السابق؛ نجده يقدم تصورات "جون بياجيه"(Jean Piaget)،"ليفي شتراوس"(C. Lévi-Strauss) في الأنثروبولوجيا، "دوسوسير" في اللسانيات، و"لوسيانغولدمان"(LucienGoldman) في المنهج البنيوي التكويني. وقد أفرد الفصل الرابع من كتابه "البنية الغائبة " لمناقشة مفهوم البنية والبنيويةوإيدولوجيتها وفلسفتها وأثرها في علاقتها بالعلامة وبناء السنن، بالإضافة إلى علاقتها بالسيميائية كنظرية على العموم، وربطها بالبنية الغائبة.

لا ينفي "إيكو" أهمية التيار البنيوي في تأسيس السيميائية ، ويذكر ذلك بوضوح في كتابه "العلامة" قائلا: "لا يمكن ان ننكر أن التيار البنيوي هو الذي وفر في القرن العشرين الشروط الأساسية لدراسة العلامات. ولقد كان لهذا التأثير نتائج هامة: فبما أن المنهجية البنيوية تبلورت أساسا في الميدان اللساني ، فقد ساد الاعتقاد أنه من الضروري تطبيق النموذج اللساني على كل أنواع العلامات"24

قد يعترف هذا الباحث بأهمية البنيوية ، ولكن لا يبيح أن تعامل كل الأنساق السيميائية بالإجراءات نفسها التي درس بها النموذج اللساني، وقد نتج عن هذا التصور حصر السيميائية في حدود ضيقة رفضها "إيكو" لأن الأنساق الأخرى، وإن كانت لا تملك الخصائص نفسها التي يملكها النسق اللساني، كـ"الاعتباطية" (Arbitraire) مثلا ، فإنها لا تعزل وإنما تدرس حسب طبيعتها المميزة مثل الأنساق البصرية التي أولاها "إيكو" اهتماما واسعا.

كما يعود إيكو لمناقشة قضايا البنيوية في كتابه"العلامة"؛ حيث يعيد مفهوم البنية إلى تصوره الفلسفي، فيقول:" نكون أمام موضوع فلسفي بالغ الأهمية: هل البنية شيء ؟[...] هل هي موجودة في استقلال عن ملاحظاتنا؟ من الواضح أن البنية كما تم الكشف عنها لا وجود لها في ذاتها: إنها حاصل العمليات التي قمت ببلورته لكي اتمكن من تعيين الاشياء المختلفة

بطريقة منسجمة. ومع ذلك ألا نقوم ، من أجل بلورة هذه البنيات، بعمليات ذهنية تتميز بكونها متناظرة مع العلاقات التي تنسجها الأشياء فيما بينها في الواقع. وهنا سيلوح التقابل بين بنيوية وجودية وبنيوية منهجية"25

هذا الاستنتاج الذي وصل إليه إيكو بعد قراءته للبنيوية عند هؤلاء يعدُّ البنية حاصل عمليات تنظيم الإنسان لعناصرها بطريقة معينة، وهو الأمر الذي يبدو لنا مخالفا لمفهوم البنية عن "جون بياجيه" على الأقل "تبدو البنية بتقدير أولي، مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر)تبقى أو تغتني بعلبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدى حدودها أو تستعين بعناصر خارجية،وبكلمة موجزة تتألف البنية من ميزات ثلاث: الجملة والتحويلات والضبط الذاتي"26 .

لذلك يصعب علينا أن نتفهم أطروحته هذه إلا إذا تقدمنا اكثر في مناقشة وجهة نظره؛ حيث يستمر ربطه لمقترحاته السيميائية بالفكر البنيوي من خلال حديثه عن مفهومه نسق الأنساق الذي يعد تصورا بنيويا مرتبطا بالفكر الإنساني في عمومه" من تبسيط إلى تبسيط ذاك هو حلم البنيوي . إنها الرغبة في الوصول إلى نفس الإيقاعات ونفس الروابط (نفس العلميات ونفس العلاقات الأولية) داخل كل سلوك إنساني، سواء أكان ثقافيا أو بيولوجيا. إن هذا النسق الأصلي يكمن في آليات الفكر الإنساني نفسه الذي يتشابه مع الآلية الضمنية للسيرورات العضوية"27

هذا يقود إلى أن اهتمام "إيكو" بالبنيوية متصل بمنظور هذه الفلسفة التبسيطي الذي يسمح بإمكانية تشكيل علاقات بين انساق جزئية تمكّن في الأخير من تشكيل "نسق الأنساق فإن كانت البنيوية تركز على الأنساق وعناصرها والعلاقات بينها ، فإن "إيكو"مهتم بجعل هذا التصور أكثر شمولية وتعقيدا ؛ حيث يسمح بربط الأنساق بعضها ببعض لإنشاء هذا النسق الشامل.

إن إيكو لا يرسو على فلسفة بعينها حين يناقش مفاهيمه السيميائية أو تصوراته ، فتصور نسق الأنساق(أو النسق الدلالي الشامل) وإن كان له خلفية بنيوية إلا أنه يتصل من ناحية أخرى بالسيميوز أو السيرورة الدلالية للأنساق الثقافية؛ إذ يرى أنه " سيكون من

المستحيل تقديم وصف شامل لهذا النسق . والاستحالة لا تعود فقط إلى ضخامته، ولكن أيضا إلى أن الوحدات الثقافية التي تشكله تتميز بالتحول الدائم داخل المسار اللامتناهي للسيميوز، وذلك تحت ضغط المدركات الجديدة، أو بسبب تناقضاتها المتبادلة. وتلك هي طبيعة حياة الثقافة. فالنسق الدلالي، باعتباره الأساس الذي تسند إليه الدلالة، يمكن وصفه (وبالتالي مأسسته) على شكل حقول ومحاور جزئية"28.

ولا يتوقف عند هذا الحد، لأنه من نقل هذا النسق العام إلى الثقافة " وفي هذا الأفق ، فإن الثقافة في كليتها ينظر إليها باعتبارها نسق أنساق العلامات؛ حيث يصبح داخلها مدلول دال ما دالا لمدلول جديد، كيفما كانت طبيعة النسق (كلام، موضوعات، سلع، أفكار، قيم ، أحاسيس، إيماءات أو سلوكات) والسيميائيات، استنادا إلى هذا ، هي الشكل العلمي الذي تتخذه الانثروبولوجيا"29

هكذا تمنح البنيوية لإيكو فرصة تشكيل تصور شمولي للأنساق، هذه الفرصة التي لم تمنحها لنفسها حين حصرت دراساتها في حدود البنية المغلقة، ولعل ما سمح له بالوصول إلى هذه النتيجة هو اطلاعه على سيميائية "بيرس"؛ حيث حاول التوفيق بينها ، وهذا التأثير الواسع لبيرس هو ما يجب أن نناقشه.

2.3. سيميائية بيرس

يستدعي أمبرتو إيكو كثيرا من المفاهيم عند بيرس، وقيم منطقه وتداوليته وظاهريته؛حيث يظهر التأثر به واضحا من خلال انفتاح مفهوم السيميائية الذي ينادي به ، واتصال أغلب المفاهيم التي تناقش بها العلامة بما ذكره بيرس في أعماله ، كما يشير مثلا إلى مفهوم العلامة وأنواعها وشروحها، وحتى العناصر الجزئية مثل أنواع الموضوع عند بيرس (الموضوع الحيوي، الموضوع المباشر)، وأنواع المؤول (المباشر، الدينامي والنهائي)، وكذلك علاقة التداولية بالسيميوز(السيرورة الدلالية اللانهائية)، بالإضافة إلى أطروحة السيميوز أي سيرورة تأويل العلامات، ونقل الأنظمة العلامية من طبيعتها الثابتة التي درست بها إلى فاعليتها التداولية.

ارتكازه على مرجعية ضخمة مثل التي أنجزها بيرس لم تسمح له بتوسيع منظور السيميائيات

فحسب وإنما سمحت له ببناء مرجعية فلسفية متماسكة لهذا الانفتاح الذي يطمح إليه ، ولعلنا هنا نشير إلى الجزء الثاني من كتاب البنية الغائبة الذي خصصه لسيميائية الأنساق البصرية ، ففي هذه المقالة يرتكز "إيكو" على مفهوم العلامة الأيقونية عند بيرس ويحاول أن يناقش نسبية المشابهة التي تطرحها العلامة البصرية وتشعبها ليصل إلى آليات جديدة لتجاوز الرفض اللساني لهذا النسق التعبيري وعدم وسمه بالعلامة.

إن ما يفعله "بيرس" في إدراج علامة،وتعالقها بعلامات أخرى داخل شبكة وسيرورة لا متناهية، مما يؤكد البعد التداولي للعلامة يعد مركز اهتمام إيكو الذي سيرتبط لديه بالسيميائية بقدر ما يرتبط بقراءة وتأويل النصوص، ويظل هذا المفهوم الشمولي حاضرا في كل أعماله النقدية.

يطرح هذا الباحث فكرة جوهرية تحكم تطور الفكر السيميائية فيما يتعلق بجوهر موضوع السيمياء أهو العلامة أي الفعل، أم السيرورة الدلالية أي القوة الفاعلة (الفاعلية التي تحكم حركة العلامة) ؛ إذ يرى أنالمرحلة البنيوية أظهرت الاهتمام بالعلامة ، لكن الأمر تطور بعد ذلك إلى الاهتمام بقواعد توليد النصوص وتأويلها ،أي الاهتمام بالسيرورة الدلالية30

لذلك يؤكد أن فرضية كتابه (العلامة) ليست البحث عن العلامة في ذاتها، وإنما البرهنة أن الأهم هو السيرورة الدلالية التي حسب رأيه لا تحيل على التعارض مع مفهوم العلامة كما جاء ذلك عند "بيرس" المتعلق بوجود ثلاثة أطراف هي الممثل / الموضوع/ المؤول، ولا تنتج العلامة بذلك إلا إذا دخلت حركة السيرورة الدلالية أو السيميوز31

تستمر هذه البرهنة على أهمية التأويل كعنصر من عناصر تشكيل العلامة ، فالمهم ليس ما تحيل عليه العلامة وإنما دخولها في نسق يسمح للتأويل بمنحها معناها ، هذا المعنى الذي سيتصل بعمليات تأويلية تقود العلامة من مرحلة إلى اخرى فيتحول مضمونها بتغير أنماط التأويل، فيدخل بذلك داخل سيرورة دلالية لا نهائية ، لذلك يقول إيكو: "إن شرط علامة ما ليس الاستبدال (أي أن يقوم شيء مقام شيء آخر)، وإنما ضرورة وجود تأويل ممكن. والتأويل (أو معيار التأويلية) يجب أنه يكون مأخوذا حسب المعنى الذي يريده بيرس عندما يعترف أن كل مؤول (علامة، أو تعبير أو متتالية تعبيرية تترجم تعبيرا سابقا). يعيد ترجمة

"الموضوع المباشر" أو مضمون العلامة، ويوسع الفهم. "32
تنتهي حركة السيميوز عند بيرسبالتأويل النهائي للعلامة المرتبط بانتهاء التحول والركون إلى واقع مادي معين، لأجل هذا الطرح يشير إيكو إلى الطبيعة التناقضية التي يتسم بها فكر بيرس بالنسبة إلى قضية السيرورة الدلالية، إذ يعتبر إن السيميوز لديه تموت وتحيا من رمادها كل حين، لأن سلسلة من الأفعال المكررة بصورة متماثلة يمكن أن توصف بعبارات عامة33

نلاحظ أنه رغم اعتراف "إيكو" بأثر سيميائية "بيرس" في مشروعه العلمي – وهو أثر لا يناقش- إلا أن ذلك لا يمنعه من إبداء بعض التحفظات على فكره خصوصا ما يتعلق بالتناقض الظاهر على مستوى مفهومه للسيميوز ، الذي يتأرجح بين اللانهائية والتحديد النهائي، بالإضافة إلى عدم موافقته على مفهوم "المشابهة "، الذي خصّ به بيرس العلامة الأيقونية، ولعل هذا المقام لا يسمح لنا بالتفصيل في ذلك
لا يمكننا أن نكتفي بهذا الحد من المؤثرات والمرجعيات ، لأن أعمال هذا الباحث تحيل إلى فلسفات أخرى.

3.3 الظاهراتية

يبدأ "إيكو"كتاب"العلامة" بسرد قصة السيد سيغما الذي يواجه مدا كبيرا من العلامات، محاولا التعرف عليها وفهمها، ثم يتحول الباحث إلى سرد عدد من التصورات الخاصة بمفهوم العلامة والتي يجري استعمالها، يحيل بعدها على الفروق التي تظهر بين الدراسات المقدمة من قبل فلاسفة اللغة والدراسات السيميائية ؛ إذ يقارن مثلا بين "هايدغر" (Martin Heidegger) وبيرس ، فيرى أن الطريقة التي يتعامل بها الأول مع اللغة وإنتاج الدلالة مثيرة للاشمئزاز ،في حين أن منطق بيرس الذي كان مصدرا للريبة في الفلسفة سابقا ، يمنحنا نظرة شمولية لمفهوم العلامة واشتغالها الدلالي34
وفي كتاب "الأثر المفتوح" لا يتوقف تأثر "أمبرتو إيكو" عند الفلسفة اليونانية وتطور العلم ، وإنما يذهب بالتصور الذي يريد البحث فيه (الانفتاح) ليصله بالفلسفة الظاهراتية محاورا بذلك ميراثا ضخما من الطروحات الفلسفية التي شكلت نموذجا مختلفا في النظر إلى الوجود

والعالم وأعادت تقدير الذات والإدراك ، أي الوسيلة التي تعمل من خلالها الذات للتعرف على العالم، فنجد "هوسرل"(EdmundHusserl)، "سارتر"(Jean-Paul Sartre)،"ميرلوبونتي"(M.Merleauponty).

فيرتكز على ظاهراتية"هوسرل" مثلا في قضية تدخل الوعي في إدراك الإنسان للعالم الخارجي، فالظاهر متصل بالضرورة بدخوله حيز الوعي الإنساني:""كل حالة وعي تملك أفقا" يتغير بتغير الارتباطات التي نقيمها مع الحالات الأخرى، ومع مراحل تطورها الخاصة .. هكذا مثلا فإن جوانب الموضوع التي يتم"التقاطها حقيقة" في كل إدراك حسي خارجي، تحيل على الجوانب التي لا يتم التقاطها، والتي لا يتم إلى توقعها بالانتظار بشكل غير حدسي بوصفها مظاهر "ستأتي" في الإدراك الحسي. إنها "قصدية "متواصلة تأخذ في كل مرحلة إدراكية جديدة معنى جديدا"35

إن الإنسان حسب –المقترح الخاص بهوسرل- يقصد الأشياء بوعيه ، فيلتقطه الإدراك الحسي، ليرسو مدلولا في ذهن الإنسان، فيتصل الإدراك بالنسبة لهوسرل بالوعي بالظاهر، أو ما يسميه بالرد الفينومينولوجي؛ حيث "إن النظر ينظر إلى الأشياء والأشياء هي حاضرة ها هنا باختصار، وفي نظر بديهي حقا، وهي ها هنا في الوعي، إذ النظر ليس إلا توجيه البصر جهة هذه الأشياء، أو كذلك استعانة بصورة من المعنى الآخر"36، وهكذا فالأشياء لا ترد إلى الذهن إلا عن طريق دخولها حيز وعي الإنسان بها.

يكون وعي الإنسان وإدراكه متصلان بالظاهر أمامهما. غير إن هذا الإدراك منفتح الأفق لأن وعينا بالاشياء يتحول ، حتى الشيء الواحد يتحول وعينا به باختلاف تفاصيل رده إلى الذهن، أو بعبارة اخرى يكون إدراكنا لشيء ما مرتبطا بالأشساء التي تشكل احتمالا للإدراك بعده، والأمر نفسه متصل بالشيء من وجهات نظر متعددة تمنحنا وعيا متعددا بالشيء.

يستثمر "أمبرتو إيكو""هوسرل" في رصد نظرية الإدراك وتبلور المدلول في الذهن؛ حيث يقول: "إن الإدراك باعتباره سيرورة افتراضية شبيه بذلك التحديد الاستثماري للمعرفة ، إلا أنه وثيق الصلة بتلك السيرورة التي بموجبها لا وجود لرابط دائم بين الإدراك الخام ومنح اسم

لشيء ما. وهو ما تشير إليه الفينومينولوجياهوسيرل. إذا اعترض علينا بأنه لا يجب الخلط بين "المدلول الإدراكي" وبين "المدلول اللساني" أجبنا بأن هناك سببا يجعلنا نستعمل نفس اللفظ في الحالتين معا37

إن "إيكو"يستثمر مقترحات الإدراك في ما يتصل باستقبال النص وملء فراغاته وإعادة إنتاج دلالاتها، لأن إدراك اللغة شبيه بإدراك الأشياء ، هذه الحركية الفاعلة للإدراك هي التي تحرك الدلالة داخل النص انطلاقا من تفاعل قصدية القارئ وقصدية النص.

لا يمكن أن نمر على أثر الظاهراتية في مشروع "إيكو" دون أن نعود إلى"بيرس"؛ حيث يبرز الفوارق والاختلافات التي بين ظاهراتية هوسرل وفانيروسكوبية بيرس ويصر على اختلاف أساسي يتصل بمفاهيم محددة هي العلامة وتجلي الحضور، بالإضافة إلى الروابط بين التمثيل والحضور الأصلي ، فبيرس يصر على ضرورة تحويل عالم الأشياء إلى عالم من العلامات . فيصبح بذلك التجلي لا يعني حضور شيء ما وإنما إنتاج دعائم لتشكيل العلامة، ويعتبر أن هذا ما يظهر في الظاهراتية الهوسرلية ؛ حيث يكون الشيء هو ممثل ناتج عن ظاهر البداهة الحدسية، وهذا ما يجعل التجلي والعلامة يحيلان على شيء واحد.38

فإذا كان هوسرل يصر على البداهة التي تحكم إدراك الأشياء وتنقلها عبر الوعي إلى ذهن الذات ، فإن العلمية عند بيرس تجعل من الظاهر مرتبطا بمستويات ثلاثة للوجود ؛ حيث إن وجود الإمكان ووجود التحقق يبدوان مستقلين، إلا أنه لا يمكنهما دخول حقل التجربة الإنسانية إلا بالوجود الثالث، وهو وجود القانون والوعي، " فالثالثية هي مقولة الاستمرار والاستمرار يمثل الثالثية بشكل محكم تقريبا وكل الصيرورات مرتبطة به"39، هكذا يتوسط الوجود القانوني (الوعي) نمطي الوجود السابقين، لأنه الوحيد الذي يعيد ربطها بصيرورة التجربة الإنسانية وتحريك أنساقها، فالوجود الثالث يبرهن على حضور الإنساني داخل حركة العلامات عبر اشتغال الإدراك لفعل ذلك.

ويضيف إلى هذا جهود ميرلوبونتي التي تشير إلى أن النظرة التي تتخذها الذات المدركة لا تدرك العالم كله؛ حيث إن الأفاق تبقى مفتوحة، وبذلك ينشأ تعارض بين حقيقة العالم وعدم اكتماله من جهة وكلية حضور الوعي وارتباطه بحقل الحضور الذي ينشئ الغموض 40

إنه البحث الظاهراتي الذي يجعل من علاقتنا بالعالم وما نراه علاقة شديدة الفاعلية والدينامية ؛ حيث يداهمنا العالم كل مرة نراه فيها بالجديد،لأن معاينة الظاهر مرتبطة بالوعي الذي يجلي حقيقة العالم ، وانعدام الوعي يحيل الإنسان على الافتنان بالعالم الوهمي41

يمارس فعل الرؤية حضوره وربطه بين المرئي واللامرئي، وبين الوعي واللاوعي، وبين الحقيقي والمتخيل، وهذا يضعنا أمام نقطة أساسية لتمثل العالم هي الإدراك، الذي ركز عليه "ميرلو بونتي" في محاولة لربط العالم بالأساس الأنطولوجي (Ontologique) الأول عنده هو الذات، لكن هذه الكينونة محصورة بين الإدراك والمتخيل، وعلينا أن نفصل معه منذ البداية أن الوعي بالحقيقة يتجسد في الإدراك الحسي فحسب، بعيدا عن متاهات المتخيل التي قد يسجن فيها الإنسان.

وهكذا فإن "ميرلو- بونتي" يجعل الرؤية تقع في جوهر الحوار والتواصل القائم بين الذات الإنسانية والعالم أو الوجود الذي تنتمي إليه، وسبيلنا الوحيد للتعرف عليه هو رؤيته؛حيث تجمع العالم الخارجي (المحدد في الزمان والمكان) مع العالم الداخلي الحاضر في ذهن الذات، وهذا التصور يؤثر بالضرورة على فعل التلفظ المرتبط بالرؤية والتعرف على العالم، لأنه شكل من أشكال التعبير عنه.

إن هذا ما يشير إليه إيكو الذي يرى أن ميرلوبونتييعد اللغة هي السجن او الحيز الذي نتواصل داخله ونفهم عالمنا من خلاله" إن هذه "الأنا" هي منتوج ثقافي (يقول بيرس إنها النوع الذي تبلوره الثقافة لكل "الأنوات" الممكنة). فعندما تتماهى "أنا" التلفظ مع " أنا" الملفوظ، فإنها تفقد بعدها الذاتي، إن اللغة تسجنها داخل غيرية، وعليها أن تتماهى معها لكي تبني ذاتها، ولكنها لن تستطيع بعد ذلك التخلص منها"42

تظهر اللغة عند ميرلوبونتي محل سكنى البشرية، التي تظهر فيها حقيقة الفكر، ولا يمكن بدونها تقديمه ولا تعريته، وبذلك تكون الرؤية جزءا من التعرف على العالم الذي تغطيه اللغة بعد ذلك بردائها التواصلي الشفاف.

4.3. فلسفة التأويل

إن تأثر "أمبرتو إيكو" بالتأويل بدأ في الكتاب "الأثر المفتوح" وهو يرى أن جهده ذاك كان

بداية لاستشراف أثر القارئ والتأويل في النص؛ حيث يقول " لقد دافعت في هذا الكتاب عن الدور الفعال للمؤول في عملية قراءة النصوص ذات الصبغة الجمالية. ولم ير القراء في هذا الكتاب سوى جانب "الانفتاح" ، متناسين أن القراءة المفتوحة التي دافعت عنها هي نشاط نابع من أثر فني (عمل يهدف إلى إثارة تأويل)"43

وهذا الأمر يعد محاولة ربط بين جهوده في دراسة دور المؤول وفاعلية القارئ في النص وأعمال نظرية القراءة والتلقي. غير إن التأويل عند إيكو يقع بين التأويل اللامتناهي عند بيرس وقواعد محدودية التأويل، فهو يرى أن السيرورة الدلالية اللامتناهية المقترحة من طرف بيرس لا تعني غياب قاعدة للتأويل ، فلا نهائية النص وحركة التأويل الدائمة لا تعني أن كل تأويل هو تأويل جيد.44

تظهر في المرحلة الأولى من الكتاب (التأويل والتاريخ) أطروحة مهمة جدا بالنسبة لتوضيح تصور إيكو للتأويل بين قصدية المؤلف والشخص المؤول؛ إذ يقترح إضافة إلى قصدية المؤلف وقصدية المؤول طرفا ثالثا هو قصدية النص.

يحاول "إيكو" في هذا المقال أن يطرح فرضيته الخاصة بحدود التأويل انطلاقا من عرضه لسلسلة من المعارف التاريخية التي تتصل بالحدود الجغرافية التي تشكل هوية البلدان والمدن عند الرومان مثلا، وأن تجاوز الحدود في كثير من الأحيان يعد معصية وخيانة من الناحية التاريخية تماما كما أن الجسور اعتبرت عملا تدنيسيا، وبذلك يناقش قضية الحدود تمهيدا لربطها بالتأويل.

يبدأ بعد ذلك بعرض الأبعاد الفلسفية لمفهوم السيميوز أو لا نهائية التأويل، فيربطه بظاهرتين مهمتين في الفكر الغربي هما الهرمسية(Hermès) والغنوصية (Gnose).

إن فكرة الهرمسية المطروحة في الفكر الغربي منذ العصر الإغريقي ارتبطت بتأويل اللامحدود، ويعزو لها إيكو فكرة انفتاح التأويل على اللانهائي ، فالتأويل يقوم على حركية لا تتصل بنهائية محدودة، ثم يبين ما لأسطورة هرمس من تأثير على الفكر الفلسفي الغربي، فـ" في أسطورة هرمس هذا نعثر على نفي مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض وكذا لمبدأ الثالث المرفوع؛ وفيها أيضا تنكفئ السلاسل المنطقية على نفسها لتشكل هرما حلزونيا : فالـ"مابعد"

يسبق الـ"ماقبل" ، والله لا يعترف بأية حدود فضائية ، ويمكنه أن يكون ، على هيئات متنوعة، في أماكن متعددة في وقت واحد"45

ثم يربط الهرمسية بتأثيرها على المعرفة بين الظاهر والباطن وقضية إخفاء الحقيقة" إن المعرفة السرية معرفة عميقة (ذلك ان ما يوجد تحت السطح هو وحده الي قد يظل مجهولا لفترة طويلة). وبناء على ذلك، فإن الحقيقة ستكون هي ما لم يقل، أو هي ما قيل بطريقة غامضة ، ويجب أن تفهم في ما هو أبعد من ظاهر النص."46

يستنتج "إيكو" من خلال طرحه لأثر الهرمسية في الفكر الغربي، أنها وبمرور المراحل الزمنية ساعدت الفكر الغربي لكي يناقض مبائه الأساسية الثلاث (مبدأ الهوية/ مبدأ عدم التناقض/ مبدأ الثالث المرفوع)، وانتقل إلى الدخول في التاويل اللامحدود، لأن الاعتقاد بالسر الغامض في التأويل ، جعل الدراسات التأويلية بعد ذلك تعتقد أن قصد الكاتب لا يمكن الوصول إليه، وإنما ما يمكن ان يصل إليه القارئ هو فتح إمكانيات للتأويل، مهما كانت درجة قربها من التأويل النهائي أو الجيد، وهي أمر لا يستحبه "إيكو" كثيرا.

إن التصور الهرمسي للحقيقة يتصل بمفهوم عن "السر النهائي" ؛ حيث " يكمن في أن كل شيء يخفي سرا. ولهذا السبب ، فإن السر الهرمسي لا يمكن أن يكون سوى سر فارغ، ذلك أن الذي يزعم أنه قادر على الكشف عن هذا السر لم يأخذ بعد حظه الكافي من الاستئناس ، ولم يتجاوز حدود المعرفة السطحية للسر الكوني"47

إن النتيجة التي نحصل عليها أن التأويل اللامتناهي يدخل النص المقروء في متاهات متشابكة لإنتاج الدلالة حسب الأسنن التي تتفاعل معها، اتصالها بعناصر أخرى مختلفة أو متشابهة معها، فتدخل بذلك في علاقات جديدة وبذلك انتاجا وتوليدا لسيرورة الدلالة.

أما بالنسبة إلى الفلسفة الغنوصية فيبين "إيكو"الارتباط الوثيق بينها وبين الفكر الفلسفي الهرمسي، حيث "إن الحقيقة سر، ولن تجدي مساءلة الرموز والأحاجي للكشف عن الحقيقة النهائية، فلذلك لن يقود إلا إلى تغيير هذا السر من موقع إلى موقع آخر. فإذا كان هذا هو الشرط الإنساني ، فإن هذا يعني أن العالم نتاج خطأ ما. وسيكون التعبير الثقافي عن هذه الحالة النفسية هو الغنوصية "48

إن هذه الرؤية المتطرفة للإنسان في علاقته بالوجود، لأن إصرارها على السر/ الحقيقة الذي يحكم الوجود الإنساني، والإنسان لا يملك الوسائل للوصول إليه، جعل هذه الفئة ترى في ذلك تعسفا فـ"الغنوصي ينظر إلى نفسه باعتباره كيانا منفيا وضحية لجسده الخاص، معتبرا هذا الجسد قبرا ومنفى. لقد قذف به إلى العالم وعليه أن يجد مخرجا منه .إن الوجود شر ونحن نعرف هذا الشر.وبقدر ما ينتابنا شعور بالإحباط في هذا الوجود الأرضي، بقدر ما نكون فريسة لهذيان جارف ورغبة في الانتقام"49

ما يهم "إيكو" بشأن الغنوصية ليس هذا الطابع التشاؤمي ، ولكن انغلاق الحقيقة عن نفسها، وعدم انكشافها أمام الإنسان ، وهو الأمر الذي يتقاطع مع السر النهائية عند الهرمسية ، ويجعل من التأويل دائرة لا يخرج القارئ منها.

لقد أثرتالهرمسية والغنوصية في الفكر التأويلي المعاصر، وخصوصا ذلك المتصل بقراءة النصوص ، فيرى أن المقاربات المعاصرة الخاصة بتلقي النص تشترك في نقاط محددة وهي:

-النص منفتح ويملك سلسلة من الروابط الداخلية اللانهائية

-اللغة عاجزة عن تشكيل دلالة وحيدة ومنفردة

-اللغة تعكس لا تلاؤم الفكر

-لا يمكن لنص ان يثبت شيئا ما وإنما يحيل على سلسلة من الإحالات اللامتناهية

-تقديم قصدية القارئ على قصدية المؤلف في الغنوصية النصية المعاصرة.50

يقوم "إيكو" كذلك بوصل التأويل بالدائرة الهرمينوطيقية ، ويقترح مفهوم "المتاهة الهرمسية"التي يربطها بشكل جلي بالسيميوز بمفهومها البيرسي ، ليبرهن لا محدودية الإمكانات التي يمكن أن تنفتح أمام القارئ لتأويل نص ما ومحاولة فهمه، ف "السيميوزيسالهرمسية تبحث في كل نص كما في النص الكبير للعالم ، عن امتلاء المدلول لا عن غيابه، ومع ذلك فإن هذا العالم الذي تغزوه الذاتيات ، ويحكمه مبدأ التدليل الكوني،ينتج انزلاقات[دلالية] لا تتوقف، ومن ثم فهو يحيل على اي مدلول [...] ولهذا السبب فإن مدلول نص ما قضية لا أهمية لها، والمدلول النهائي سر يستعصي على الإدراك"51

إن ربط التأويل بالسيميائية هو ما منح خصوصية مميزة لمشروع "إيكو" ، وجعله يحقق الانفتاح والتصور الشمولي للأنساق على اختلافها، ويجعلنا نعود من جديد إلى اطروحة الانفتاح؛ حيث يؤكد لنا قائلا:" لا أكثر انفتاحا من نص مغلق . إلا أن انفتاحه لا يكون من فعل مبادرة خارجية ، بل يكون طريقة في استخدام النص وليس طريقة يُستخدم بها، على أنه يتم ذلك برقة بالغة . "52، وهي نظرة حققت إمكانية الجمع بين هذه التصورات البعيدة ليمنح النظرية السيميائية آفاقا للتوسع ، حقق هذا الباحث بعضها.

خلاصة:

لم يكن هدف إيكو طيلة مشاريع بحثه الإجابة عن الآليات التي تعمل وفقها السيميائية لتفسير الظواهر الثقافية فحسب، وإنما كان يملك فرضية مفادها إعادة تنظيم الفكر السيميائي بقراءة الفكر الغربي وموازنته مع أطروحته السيميائية.

ساهم هذا المشروع في التأكيد أن العلامة لا ينبغي لها أن تدرس مختزلة، ومعزولة عن سياقها، وهذا لأن فكرة التأويل والدوران حول المعنى مؤسسة في الفكر الغربي ، من خلال التفكير الغنوصي والهرمسية.

يعد التصور الخاص بالسيرورة التأويلية اللانهائية من بين الحلول المهمة التي سمحت للسميائيات بالانفلات من محدودية الفلسفة البنيوية الصارمة.

إن المرحلة البنيوية وإن كانت صارمة، فقد منحت البحث السيميائية قواعده الأساسية التي لا يمكنه الاستغناء عنها خصوصا في ضبط خصائص النسق و علاقاته و قوانينه، وهذا الجانب منها هو ما جعل "أمبرتو إيكو" يضمها إلى التيار التأويلي للعلامة كي يحصل على التصور الشمولي الذي كان يريده.

تعد مساءلة الإطار المرجعي للنظرية السيميائية فرصة لفهم السبل التي انتهجها الباحثون في هذا المجال، لفتح آفاقه ، و الانطلاق إلى ملامسة كل الظواهر الثقافية ، و أنساق التعبير ، حسب خصوصيتها.

الهوامـش والمراجـــع

1أمبرتو إيكو: الأثر المفتوح، تر عبد الرحمان بوعلي،ط2، دار الحوار، سوريا، 2001، ص 15

2المرجع نفسه، ص 16

3المرجع نفسه، ص 33

4المرجع نفسه، ص 42

5المرجع نفسه، ص 22

6Wolfgang Isar, L'acte de la lecture théorie de l'effet esthétique,tra Evelyne Sznycer, Ed Pierre Mardaga, Bruxelles, 1985,p319

7أمبرتو إيكو: القارئ في الحكاية، تر انطوان ابو زيد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / بيروت، 1996، ص 07

8Umberto Eco, la structure absente-introduction à la recherche scientifique, Mercure de France, TraUccioEsposito –Torrigiani, La France, 1972,p405

9أمبرتو إيكو، العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، تر سعيد بنكراد، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء /بيروت، 2010،ص45

10المرجع نفسه ،ص 44

11Umberto Eco, la structure absente,p25

12أمبرتو إيكو: القارئ في الحكاية ، ص10

13 المرجع نفسه ، ص10

14Umberto Eco, la structure absente,p25

15 Op, Cit, p 28

16Op, Cit ,p28

17 Op, Cit ,p28

18 Op, Cit ,p30-31

19أمبيرتو إيكو: القارئ في الحكاية ، ص7-8

20Umberto Eco, sémiotique et philosophie du langage,2eed ,puf/Quadrige,france, 2006,p10

21Op, Cit,p10

22Op, Cit,p11

23Op, Cit,p12

24أمبرتو إيكو، العلامة ، ص115

25المرجع نفسه ،ص133

26جونبياجي،البنيوية،ترعارفمنيمنه وبشيرأوبري،دار عويداتللنشر،ط4،بيروت،1985،ص

27المرجع السابق ،ص134

28المرجع نفسه ،ص175

29المرجع نفسه، ص177

30Umberto Eco, sémiotique et philosophie du langage,p13

31Op, Cit,p13

32Op, Cit,p59

33أمبيرتو إيكو: القارئ في الحكاية ، ص53-54

34أمبرتو إيكو، العلامة ، ص40.

35أمبرتو إيكو:الأثر المفتوح، ص 34-35

36إدموندهوسرل،فكرة الفينومينولوجيا،ت: فتحي إنقزو،مركز دراسات الوحدة العربية،ط1،بيروت، 2007،ص41-42

37 مبرتو إيكو، العلامة ،ص237
38أمربتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، تر سعيد بنكراد، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 2004،ص127
39جيرار دولودال، السيميائيات أو نظرية العلامات، ت:عبد الرحمان بوعلي، دار الحوار ، ط1،سوريا،2004، ص86-87
40أمبرتو إيكو:الأثر المفتوح، ص 36
41موريسمرلو- بونتي،المرئي واللامرئي،ت. عبدالعزيز العيادي،مركزدراسات الوحدة العربية والمنظمة العربية للترجمة،ط1 ،بيروت، 2008، ص 56
42أمبرتو إيكو، العلامة ، ص205
43أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، ص21
44المرجع نفسه، ص21
45 المرجع نفسه، ص29
46 المرجع نفسه، ص31
47 المرجع نفسه، ص34
48 المرجع نفسه، ص37-38
49 المرجع نفسه، ص39
50 المرجع نفسه، ص42
51 المرجع نفسه، ص118-119
52أمبيرتو إيكو: القارئ في الحكاية، ص71